- ١ -

ثلاث امبراطوريات وأربع دعاوى

« وقال الله ليعقوب أنا الله القدير أثمر وأكثر أمة وجماعة أمم تكون منك ، وملوك سيخرجون من صلبك ، والأرض التى اعطيت ابراهيم واسحق لك أعطيها ولنسلك من بعدك أعطى الأرض » (سفر التكوين ٣٥ : ١١ ـ ١٢) ٠

لقد ظلت أقدار البلاد والأمم والأديان والامبراطوريات على مدى ثلاثة الاف سنة مرتبطة بالوعد العظيم المدون فى الكتب المقدسة ، اذ تأثرت ملايين لاتحصى من البشر بكلمات العناية الالهية التى تلقاها يعقوب ابن اسحاق بن ابراهيم ، الذين هم الآباء الاسرائيليون ٠ وقد صار مفهوم الأرض الموعودة عقيدة أساسية فى ديانة اسرائيل ومحورا لآمالها فى الزمن الغابر ، بل كان من المقدر لهذا المفهوم أن يصبح جزءا أساسيا فى جميع الثقافات التى قبلت الكتب المقدسة لليهودية أو التى ارتبطت بالديانة الاسرائيلية برباط ما ٠

وقد حملت الديانة المسيحية ، التى شهدت تمام نبوات الخلاص بقيام عيسى المسيح ، هذه الكتب المقدسة وما سجلته عن الوحى عبر البحر المتوسط الى روما عاصمة الامبراطورية الوثنية ٠ وسقطت الامبراطورية ، ولكن الدين الجديد كان قد غزاها من الداخل ، وهو غزو أكثر ثباتا من أى من الفتوحات العابرة التى قام بها زعماء الجرمان وغيرهم من البرابرة الذين طرقوا أبواب العاصمة الرومانية ٠ وانتشرت المسيحية بين القبائل التى اتخذت من أطلال الامبراطورية الكبيرة معسكرات لها ٠

لقد كانت المسيحية أكثر من مجـرد ديانة · اذ انهـا كانت ثقـافة وحضارة امتزجت فيها أثينا وروما مع أورشليم ، ولم يرث الانســان المسيحى الفكر الكونى فقط وقصة الاله الذى أصبح انسـانا فى سـبيل خلاص البشرية ، وانما ورث أيضا تراث أمة مختارة كما ورث أحداث تاريخها وأنبيائها الذين هم أعظم المعلمين لأسمى اخلاق عرفتها البشرية · ومن خلال قصة العبريين ـ الشعب المختار الذى فقد امتيازه برفضـه للمسيح المخلص ـ تعلم المسيحى كيف ينظر الى نفسـه باعتباره وريثـا لدعاوى العبريين وامتيازاتهم · اذ أن العهد الجديد قد صدر عن العهد القديم ، وصارت وصايا العهد القديم التى تعود الى ذلك الزمان الذى كانت البشرية فيه تعيش فى ظل الناموس ، محطا للنسيان والاهمال ·

أما روايات الكتاب المقدس التاريخية ، بواقعها الجغرافى المحسوس ، فقد تم تناسخها وتحولها الى العالم الروحى المعنوى ، فاورشليم عاصمة المملكة القديمة تحولت الى أورشليم السماء · وباتت مملكة داود رمـزا لعالم عصر الخلاص الذى سوف يأتى · وبينما ظلت بيت لحـم والناصرة أماكن البشارة والميلاد ، كانت أورشليم ذاتها بما تشملة من طريق الآلام ، وجبل الزيتون ، وقبر المسيح أكثر من مجرد نقطة على خريطة عالم الله الهائل المنبسط · وهكذا أصبحت الأرض المقدسة ، والاماكن التى شهدت معجزات المسيح وآلامه أماكن حقيقية فى الوجدان المسيحى · ولم يكن هناك فى عالم المسيحية من لا يعرف اسماء أقاليم يهوذا والجليل الثانية ·

وكانت تعاليم المسيح واحـدة ومشتركة فى جميـع انحـاء العالم المسيحى ، بيد أنه نظرا لعدم وجود سلطة فى ممالك الغرب شبه البربرية تستطيع أن تترجم المزاعم المسيحية الخاصة بالأرض المقدسة الى مفاهيم سياسية كان الموقف فى الشرق المسيحى مختلفا حيث كانت بيزنطـة قد خلدت عظمة روما ، وجـلال الامبراطورية المسيحية · ومع طلوع شمس القرن السابع بدأ الروم ، كما كان يطلق عليهم جيرانهم المسلمون

حملة عظيمة ضـــد الفرس واستعادوا الصـــليب المقـــدس من الأسر الساسانى · وبعد جيل واحد (حوالى سنة ٦٥٠ م) انتزع الفرســان العرب كل الشاطىء الجنوبى للبحر المتوسط بما فيه من الولايات الافريقية وشواطىء فلسطين وســـوريا · وبدا حينذاك أن القسطنطينية نفسها ستختفى فى طيات موجات الطوفان الاسلامى · ولكن بيزنطة نجت بنفسها واستمر الحكم البيزنطى على البلقان وآسيا الصغرى ·

وكان امبراطور بيزنطة مسئولا عن الدفاع عن العـــالم المسيحى والعمل على مد رقعتـــه باعتباره زعيما للامبراطورية المسيحية وحامى حمى المسيحية الارثوذكسية · وكان هذا الدور الذى يلعبه الامبراطور من لوازم لقبه ، كمـــا كان جـــزءا من تراثه كخليفة للامبراطور المسيحى الأول قنسطنطين الكبير ، والامبراطور هرقل منقذ الصليب · وفى القرن العاشر شـــن الأمبراطـــور فوكاس (فوقس) Phacas، وحنا الأول تزمســـكيس (الشـــمشقيق) Jonn 1 Zimisces حملات عسكرية ضد المسلمين فى آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين · وقد حدث هذا فى عامى ٩٦٤ ـ ٩٦٥ ، ٩٧٤ ـ ٩٧٥ على التوالى · وقد وصلت هذه الحملات الى أعتاب القدس ، وأرسل الامبراطور فوكاس (فوقس) رسالة يحذر فيها الخليفة العباسى بقوله : « انت يا من تعيش فوق رمال الصحارى ··· خذ حذرك وعـــد ادراجك الى صنعاء ، اذ أننى سرعان ما أهزم مصر وتصبح ثرواتها أسلابالى · ولسوف أتحرك الى مكة على رأس جماهير المقاتلين الذين يشبهون فى كثرتهم جحافل الظلام · ولسوف استولى على هذه المدينة لكى أقيم بها عرش الرب ثم اتوجه الى أورشليم لأقهر الشرق والغرب ، وأقيم رمز الصليب فى كل مكان · »

لقد كانت مزاعم خلفاء الأباطرة البيزنطيين قائمة على أساس من قوة التاريخ وحق الدين ، واذ فشلت القوة العسكرية فى حسم الأمر ، ثم تعديل المزاعم البيزنطية فى الأرض المقدسة لكى تتناسب مع الظروف

السياسية والدينية السائدة آنذاك ، صار امبراطور الشرق هو المدافع الرسمى عن المواطنين المسيحيين فى الأراضى الخاضعة لسيادة المسلمين · وكان دوره فى الحقيقة قاصرا على حماية الكنيسة البيزنطية · وكانت تلك مصالحة مؤقتة قبلها الحكام المسلمون · وبينما كان المبدأ العملى هو السائد مما سهل عملية التوسع السياسى ، فان مزاعم الامبراطورية البيزنطية فى الأرض المقدسة ظلت طيلة تاريخ الامبراطورية سلاحا مشرعا ضد المسلمين والصليبيين على السواء ·

وفى الوقت نفسه كان العالم المسيحى الغربى يطور أطره الاجتماعية والسياسية الخاصة به · اذ بدأت تظهر كيانات سياسية جديدة ، نشأت عن الغزوات الجرمانية لأوربا الغربية ، وصار تراث روما جزءاً لايتجزأ من الكنيسة حيث وجدت مفاخر العالم الكلاسيكى ملاذها الأخير ، ولم يكن هناك وريث لروما الامبراطورية حتى عصر شارلمان (٨٠٠ م) الذى وحد أقاليم الغال وألمانيا وايطاليا تحت حكمه ، فقد أعادت قوته العسكرية وضرباته ضد السكسون الوثنيين ، وفى بوهيميا وبانونيا ، فضلا عن حروبه ضد أسبانيا المسلمة ، بناء الامبراطورية الغربية ، كما انها كانت فى الوقت نفسه حروبا ضد الكفار · وقد وسعت حروبه ضد الوثنيين والمسلمين والشماليين والسلاف والآفار حدود سيادته السياسية ، كما أنها وسعت من حدود الأمة المسيحية ، وأدت الى انتشار الدين المسيحى · وقد استمر الشعور بهذا الجانب من حملات الامبراطور الكبير على مدى عدة قرون ، وظلت انشودة رولان ، وهى ذات أساس تاريخى ، ورحلة شارلمان الى الشرق ـ وهى من الروايات الخيالية التى شاعت فى القرن الحادى عشر وتحمل بصمات اسطورية ـ براهين أو شهادات شعبية تدل على المواجهة بين الامبراطور والكفار المسلمين · وبعد ثلاثة قرون ، أى عندما كانت أوربا فى طريقها للاحتكاك بالمسلمين فى سوريا وفلسطين ، كانت صورة شارلمان العظيمة كرائد للحرب المقدسة لاتزال شامخة فى الوجدان الأوربى ·

كانت مهمة الزعيم العلمانى للعالم المسيحى أن يدافع عن أمن بيت الله وأن يقوم بتوسيع حدود العالم المسيحى ، مع أن هذه المهمة لم تتخذ شكلا رسميا على الاطلاق · وهكذا كانت مزاعم الدفاع عن العالم المسيحى ، التى أنتجت المزاعم الصليبية فى نهاية الأمر ، مرتبطة بكل من الامبراطورية البيزنطية والامبراطورية الرومانية المقدسة · ومع أفول شمس القرن الحادى عشر ، وفى ظل الاضطراب الناجم عن الصراع العلمانى حول تقليد رجال الدين وحين كانت الامبراطورية والبابوية تتصارعان من أجل الزعامة تقدمت البابوية متعدية على امتيازات الامبراطور وواجباته · والحقيقة أن البابا جريجورى السابع الكبير (هلدبراند) هو أول من أصدر الدعوة لمحاربة الكفار ، وكان ذلك قبل الحملة الصليبية الأولى بجيل كامل ·

وكانت الدعوة البابوية معاصرة لحركات أخرى برزت فى أوربا الغربية · فقبل جريجورى السابع بجيلين ، أشرعت سفن جنوة وبيزا لقتال الكفار المتحصنين فى جزر البحر الأبيض المتوسط · وكان المسلمون قد استولوا فى القرن الثامن على جزر كورسيكا وسردينيا القريبة من القواعد الاسلامية · وقامت السفن الايطالية التى كانت قد تمرست على القتال بهجومها على شواطىء البروفنسال واسبانيا ـ بالهجوم على موانىء الجزر التى كانت قواعد للقرصنة ومراكز للسلطة · وصارت الجزيرتان مسيحيتين وبذلك كسبت المسيحية أول قواعدها البحرية خارج أرضها · ومع منتصف القرن الحادى عشر (حوالى ١٠٤٦م) مد الفرسان الفرنسيون يد المساعدة فى القتال ضد المسلمين فى شبه الجزيرة الاسبانية ، كما شن الكتلان القطالنيون والبروفنساليون هجومهم جنوبا وأحرزوا بعض التقدم حين استولوا على طليطلة سنة ١٠٨٥ م · وسرعان ما تقدم الاسبان جنوبا منطلقين من الامارات المسيحية الصغيرة فى جبال

البرانس ، ونافارا وأرغونة ، وقشتالة ، وأخذوا يطردون المسلمين من أجزاء شبه الجزيرة الشمالية · وقد أطلق على هذه الحركة فى وقت لاحق اسم حركة الاسترداد reconquista أى استرداد الأراضى التى كانت قد فقدت منذ أربعة قرون عندما عبر الغزاة المسلمون مملكة القوط الغربيين المسيحية · وهكذا كان العالم المسيحى الغربى يقاتل المسلمين لاستعادة الأراضى المفقودة ، وكان القتال يدور عبر البحر المتوسط من اسبانيا غربا الى سردينيا وكورسيكا ثم الى مالطة فى الوسط · وداخل هذا المنظور التاريخى كانت الحروب الصليبية فى الأرض المقدسة بمثابة الامتداد الشرقى لحروب الاسترداد المسيحية ·

ومع الحرب الصليبية الأولى كانت المزاعم المسيحية سواء تلك التى كان يمثلها البابا أو الأمبراطور فى الشرق أو فى الغرب ، تقابلها على الناحية الأخرى المطالب الاسلامية بل والحكم الاسلامى · ففى أقل من خمسة عشر عاما بعد هجرة محمد من مكة الى المدينة (٦٢٢ م) داخل المقاتلون المسلمون القادمون من الجزيرة العربية فلسطين وسوريا وآسيا الوسطى فى الشمال ، كما فتحوا مصر وشمال أفريقيا فى الغرب · وفى أول هجوم كبير صوب الشمال سقطت فلسطين وسوريا ، وصارت دمشق عاصمة الدولة الأموية بعد ذلك بفترة · وقد ورثت الديانة الاسلامية ـ التى اعتبرت نفسها آخر وحى الهى ـ عن اليهودية والمسيحية · وهو الأمر الذى انقذ الاماكن المقدسة فى فلسطين من الدمار الشامل · وصار المسيحيون واليهود ، باعتبارهم أهل كتاب مميزين عن الوثنيين والزراد شتيين ، مواطنين فى الدولة الاسلامية ، أو أهل ذمة حسب المصطلح الشرعى الاسلامى · وثمة رواية تحكى أن الخليفة عمر بن الخطاب ـ الذى سلمت له القدس على يد بطريركها البيزنطى وفق شروط متفق عليها ـ لم يؤد الصلاة عند قبر المسيح فى محاولة واعية لتجنب خلق سابقة ربما تضر بالمسيحيين فيما بعد · واتخذ عمر من المسجد المجاور لقبر المسيح مكانا للصلاة (العمرية) · ولكن الفاتح المسلم لم يقنع بترك

الأمـر عند هـــذا الحد · ويروى القرآن كيف أن محمدا بعد رحلة ليلية اعجازية وصل على البراق ، المطية الخرافية ، الى المسجد الأقصى ، وهو المعبد الخارجى مما أضفى قداسة على المدينة · وعندما وصل عمر بن الخطاب الى القدس طلب أن يرى هيكل الملك العظيم ســـليمان ، وانتابه الفزع عندما وجد أن المنطقة التى كانت هى المعبد اليهودى الكبير ليست سوى مقلب أتربة ، وهذا شاهد أثرى يرتبط ببيزنطة ويكشف عن انتصار المسيحية على اليهودية · فأصدر أوامره فى الحال بتنظيف المنطقة وشيد أول مســجد فى المنطقة هو المســجد الأقصى وكان عبارة عن بناء خشبى متواضع · وبعد مائة وخمسين سنة ، وفى قلب المنطقة المقدســـة شيد الخليفة عبد الملك الحرم الشريف ، وقبة الصخرة الجميلة التى كانت تواجه المسجد الأقصى عند الساحة ·

ولقرنين من الزمان بعد الفتح الاسلامى لم تلعب القدس سوى دور ثانوى فى المنظور الدينى للاسلام · فالحج ، وهو فرض على كل مسلم ، كان موجها الى المدينتين المقدستين مكة والمدينة(١) ، ولكن مكانة القدس كانت آخذة فى الرقى · ففى القرن الثامن ، وعندما بات الطريق الى مكة صعبا بسبب المشكلات السياسية أعتبرت زيارة بيت المقدس بمثابة الحج ، وبلغت مكانة تقرب من الحج الى مدن الحجاز المقدسة · وقد سعى الخلفاء وولاتهم المحليون الى تحويل أورشليم البيزنطية الى مركز اسلامى · وبدأ التسامح تجـاه غير المسلمين يقل فى ظل حكم الخليفة هارون الرشـيد (٧٨٦ ـ ٨٠٩) · وتأرجحت السياسة الرسمية بعد ذلك بين التسامح ، والضغط من أجل اعتناق الاسلام · وبلغت المراسيم التى فرضت على غير

---

(١) الحج من اركان الاسلام ، ولكن لمن استطاع اليه سبيلا ، فقد جاء فى القرآن الكريم «ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا» · والحج مفروض الى مكة فقط ، ولكن زيارة المدينـــة انما تتم لزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام · (المترجمان)

المسلمين زيا مميزا وعلامات مهنية كالصلبان الخشبية الضخمة للمسيحيين والأجراس لليهود ، فى تطورهـا الى حد تدمير الكنائس والمعـابد(٢) · ففى سنة ١٠١٢ أمر الخليفة الحاكم بأمر الله ، حاكم مصر الفاطمى شبه المجنون بتدمير الاماكن المقدسـة المسيحية واليهودية · ووقعت كنيسـة القيامة ، ضمن كنائس أخرى ، ضحية لحماسته · ومع ذلك فان القدس لم تصبح مسلمة تماما · ففى الربع الأخير من القرن العاشر ، أشـار المقـدسى الجغرافى الذى ولد فى القـدس الى أن اليد العليا فى موطنـه للمسيحيين واليهود · وربما كان هذا هو الوضع السـائد فى بيت لحـم والناصرة · وفيما عدا هذه المدن الثلاث ، تحولت سوريا وفلسطين ، بعد أربعة قرون من السيادة الاسـلامية الى بلاد اسـلامية تتحدث العربية · وبهذا اضاف الاسلام مطالبه فى الأرض المقدسـة وأماكنها القدسية الى قائمة المطالبين بها · وكان حق الاسلام يقوم على أساس السيادة والملكية الفعلية ، بيد أن هذا الحق سرعان ما أصبح يقدم على أساس من العقيدة والتفسير الدينى ·

ولم يزل هناك مطالب آخر بالأرض المقدسة ، وهو مطالب لا يملك قـوات عسـكرية ولا موارد امبراطورية · ومع ذلك فهو أكثر المطالبين اصرارا وثباتا فى دعواه ، الا وهو اليهودى الذى يعبر ثلاث مرات يوميا عن حنينه الى الأرض المقدسة وعاصمتها وعن أمله فى العودة والخلاص ·

---

(٢) الحقيقة أن هـذا التعميم فيه قدر كبير من المبالغة والمغالطة ، فان الحالة الفردية الشـاذة التى شـهدها عصر الحاكم بأمر الله الذى شملت أفعاله المسلمين السنيين ، كمـا عانى الناس العاديون من شذوذ أوامره ، لا يمكن التدليل بها على أن هـذه هى الروح التى سـادت فى العالم الاسلامى ضـد غير المسلمين · بل ان الثابت أن العصر الفاطمى كان هو العصر الذهبى بالنسبة لليهود والمسيحيين ·

انظر قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى ، ص ٢٣ ــ ص ٦٢ · (المترجم)

ولم تكن دعواه حقا مكتسبا بالتقادم ، كما لم تكن دعوى قابلة للتحويل أو النقل · فقد ربط الدين الذى صان الأمة المشتتة على مدى أكثر من ألف سنة تحقيق نبوة نهاية العالم ، بالنبوة القائلة بجمع الشتات والعودة الى الوطن · وعلى هـذا الأسـاس نظر الى كل حادثة كبيرة فى التاريخ والى كل اضطراب أو ثورة على أنهـا بشير بالخلاص القومى · وفى فلسفة الحشر اليهودية التى شاعت فى العصور الوسطى كانت بيزنطـة تشبه بآدوم الشريرة ، كما كان سـقوط بيزنطة فى أعين اليهود بمثابة بشائر التحرر · وعندما خرجت بيزنطة سالمة من صراعها مع الفرس · كان ظهور الاسلام (٦٢١) ثم ثورة العباسيين (٧٥٠) ، وانتصـارات الأتراك السلاجقة (١٠٧١) مؤشرات على قرب الخلاص · ولكن كل أمل براق كان ينتهى الى آمال محطمة وقلوب جريحة · ومع ذلك كان هنـاك شعور بأن العناية الالهية ستحقق وعدها لاسرائيل فى أية لحظة قريبة ·

وفى ظـل الحـكم البيزنطى ، فيما بين أواخر القرن الرابع وبداية القرن السـابع ، صـارت فلسطين غير يهودية فى أساسها ، أما نتيجـة اعتنـاق المسيحية ، وأما بسبب هجـرة اليهود الى أراضى الشتات · واحتفلت بيزنطة بانتصار دينها باصدار تشريعات معادية لليهود والتحريم الرسمى ضد اليهود القاطنين فى المدينة المقدسـة · ومن ثم لم يكن أمام الحاج اليهودى المتدين سوى أن يتأمل المدينة واكتفاس القمامة فى ساحل الهيكل · وهكذا كان اليهودى يردد صلواته فوق جبل الزيتون ويمزق ثيابه (كما يفعل الانسان تدليلا على حزنه) ، كما كان يأمل فى أن يأتى زمان أفضـل · وكان الغزو الفارسى لفلسطين سنـة ٦١٤ هو ساعة الانتقام ، وشارك اليهود الثائرون فى الهجوم الذى خلف أورشليم حطاما · ولكن بيزنطة أعادت تثبيت أركان حكمها لمدة جيل آخر · وحرم على اليهودى دخول المدينة · وقد تمثل التعبير عن مدى كراهية اليهود عندما أصر صفرونيوس آخر بطريرك بيزنطى لأورشليم على أن يستمر المسلمون فى سياسة التحامل ويمنعوا اليهود من الاستقرار فى الأرض المقدسة ·

وبصرف النظر من التحريم ، فقد استقر بعض اليهود بالقرب من المسجد الأقصى كخدام لبيت المسلمين المقدس · وعندما ثبت وجودهم بدأ حى يهودى ينمو بقرب القصر الأموى · ومع زيادة عددهم نما حى آخر أكثر اتساعا فيما بين بوابة دمشق وبوابة يهوشفاط ، وسرعان ما انتقلت الاكاديمية الفلسطينية ، وهى المقر المبجل لحكماء اليهود ، من طبرية الى القدس على الرغم من أن المركز الديموجرافى للحياة اليهودية كان فى العاصمة الاسلامية الجديدة فى الرحلة على ساحل البحر ، وظل كذلك حتى قدوم الصليبيين ·

وهكذا ، ظلت الأرض المقدسة ، الأرض الموعودة لثلاثة أديان ، هى أرض المطالب الدائمة · وكان الحكم الفعلى للاقاليم فى وقت بعينه خاضعا لظروف تاريخية معينة ، ولكن مكانها فى قلوب البشر كان نتيجة لعواطفهم السامية ، ومع نهاية القرن الحادى عشر اجتمعت مجموعة فريدة من العوامل السياسية والثقافية والدينية لكى تحرك أحد المطالبين ، وهو العالم المسيحى الغربى ، لكى يترجم رابطته العاطفية بالأرض المقدسة الى سيطرة سياسية · وكانت وسيلة تحقيق هذه الغاية غير المتوقعة هى أجرأ الحملات العسكرية فى التاريخ · وقد تبعتها حروب متتالية استمرت قرنين من الزمان ، وعرفت باسم الحروب الصليبية ·